مجلة علم النفس

مجلد ٢ | يونيو ١٩٤٦ | عدد ١

نمو الطفل العقلى وتكوين شخصيته

بقلم الدكتور يوسف مراد

(١) أهمية دراسة الطفولة . (٢) النمو العقلى فى الطفولة الأولى واكتساب اللغة . (٣) مراحل تطور الميل الجنسى . (٤) مراحل تكوين الشخصية .

١ — أهمية دراسة الطفولة

لم تدرس الطفولة دراسة سيكولوجية منظمة إلا ابتداء من النصف الثانى من القرن الثامن عشر . وكان الدافع الرئيسى إلى دراستها إنشاء نظم جديدة للتربية تحترم خصائص الطفولة وتهيئ لها الجو الملائم لازدهارها . وقد أقام پستالوتزى وهربارت وفروبيل نظمهم الجديدة فى التربية الحرة على ملاحظات دقيقة لسلوك الطفل وأطوار نموه . ثم سكنت هذه الحركة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر حتى استؤنفت بدراسات تين فى فرنسا (١٨٧٦) وداروين فى انجلترا (١٨٧٧) وخاصة ولهلم پريير فى ألمانيا الذى نشر سنة ١٨٨١ كتابه المشهور عن عقل الطفل وترقى سلوكه فى السنوات الثلاث الأولى . واحتذى حذو پريير علماء أمريكيون أمثال شن ومور ودير بورن فنشروا ملاحظاتهم اليومية عن النمو الحركى والعقلى فى الطفولة الأولى .

غير أن الدراسات التى تتناول سيكولوجية الطفل من جميع نواحيها لم تتسع

دائرتها إلا فى القرن العشرين ، وأصبحت الطفولة تدرس لذاتها كموضوع هام من موضوعات علم النفس العام . فتكون علم نفس الطفل بجانب علم النفس التربوى ، ومن البديهى أن يعتمد الثانى على الأول كما تعتمد الفنون التطبيقية على العلم النظرى . وقد أدت دراسات واطسون وجيزل وسوزان أيزكس وڤالون وجيوم وشترن وكارل بوهلر وشارلوت بوهلر وكلا پاريد وبياچيه إلى توسيع آفاق علم النفس العام وتعديل بعض أساليبه وإعادة النظر فى كثير من النتائج التى وصل إليها علماء النفس والفلاسفة عن طريق المشاهدة الذاتية أو ملاحظة الإنسان البالغ . فقد أبرزت دراسة الطفل قيمة المنهج الموضوعى أو منهج الملاحظة الخارجية الدقيقة لجميع مظاهر السلوك ؛ وطبق هذا المنهج بنجاح عظيم فى دراسة البالغين عامة ودراسة البدائيين والمصابين بأمراض عقلية .

وفضلا عن ذلك الكسب المنهجى فقد ألقت دراسات الطفولة ضوءاً جديداً على مشكلة أصل المعرفة وقيمتها ومشكلة صلة اللغة بالفكر ، كما أدت المقارنة بين الحيوانات والطفل إلى تحديد طبيعة العقل الإنسانى وتمييزه تمييزاً جوهرياً من عقل الحيوان . والواقع أن جميع الوظائف العقلية من وجدانية وإدراكية وإرادية حللت تحليلاً دقيقاً خلال الدراسات السيكولوجية الخاصة بالطفل لأن عملية النمو نفسها هى بمثابة تحليل وتأليف فى آن واحد وتحقق للعالم ظروفاً ملائمة لتتبع نشوء الوظائف من أبسط صورها إلى أعقدها حتى تتكامل جميعها فى حياة البالغ السوى .

ولسنا فى حاجة إلى بيان ما أفادته التربية من علم نفس الطفل وما يمكن أن تفيده لأن التطبيق السليم المنتج يكون بمقدار قيمة الحقائق العلمية . فالتربية بما تشمله من مناهج تعليمية تعتمد على أساسين : دراسة شخصية الطفل كعملية تسير باطراد نحو تكامل مقوماتها ثم دراسة عملية التعلم وتكوين العادات . وقد خطت دراسة هذين الموضوعين خطوات واسعة بفضل علم نفس الطفل .

ومن الوجهة التطبيقية أيضاً يجدر بنا أن نشير إلى فروع جديدة من علم النفس

العملى تمتد جذورها إلى علم نفس الطفل كاختبارات الذكاء والشخصية والتوجيه المهنى والصحة العقلية .

وسنحاول فيما يلى أن نقدم بإيجاز أهم النتائج التى وصل إليها علم النفس الحديث فيما يختص بنمو الطفل العقلى وتكوين شخصيته .

٢ — النمو العقلى فى الطفولة الأولى واكتساب اللغة

تقسم الطفولة إلى ثلاث مراحل رئيسية : الأولى من الولادة إلى سن ثلاث سنوات، والثانية من سن ثلاث سنوات إلى حوالى الثامنة ، والثالثة تنتهى عند بدء المراهقة ويفصل بين هذه المراحل تغير واضح فى النمو العقلى وفى تكوين الشخصية .

فعند انتهاء السنة الثالثة تحدث أزمة الشخصية الأولى[1] التى تظهر خلالها مقدرة الطفل على أن يميز ذاته عن الآخرين .

وعند مطلع السنة التاسعة تقوى مدارك الطفل بحيث يتمكن من فهم المعنويات ويصبح قادراً على تقبل منطق الكبار وعلى التعاون الاجتماعى .

ويمكن تقسيم كل مرحلة رئيسية إلى مراحل فرعية وخاصة المرحلة الأولى لأنها تمتاز بسرعة النمو الجسمى والعقلى وبظهور عدد كبير من الوظائف الهامة ومن أساليب السلوك المختلفة التى ستتضح وتنضج فى مراحل النمو التالية الموصلة إلى مطلع الشباب .

وسنقتصر الآن على أطوار المرحلة الأولى لغزارة مادتها وعظيم دلالتها .

اعتمدنا فى تقسيم مراحل الطفولة إلى ثلاث على سير النمو العقلى عامة . ويمكن اصطناع تقسيمات أخرى لو اعتبرنا مثلا مراحل تكوين شعور الطفل بذاته أو مراحل الترقى الاجتماعى أو النمو الوجدانى ، وسنشير إلى بعض هذه التقسيمات عند حديثنا عن تطور الميل الجنسى ومراحل تكوين الشخصية الذاتية .

---

(١) تحدث الأزمة الثانية فى أثناء المراهقة ، وهناك أوجه شبه بين الأزمة الأولى والثانية ففى الحالتين يتغلب النشاط النفسى الداخلى على مظاهر النشاط الخارجى ، غير أن النشاط فى الحالة الأولى يكون غامضاً وفى الغالب لا شعوريا ؛ أما فى المراهقة فيزداد الشعور حدة وعمقاً .

وإذا أردنا أن نتخذ دليلاً واحداً لتقسيم المرحلة الأولى التى تمتد من الولادة إلى ثلاث سنوات لتعذر علينا الأمر إذ أننا نشاهد النمو يسير بسرعة فائقة ، متفاولا النشاط الحركى والنشاط الحسى ومظاهر الانفعالات وبزوغ التصور الذهنى واكتساب اللغة وأساليب الاستجابات الاجتماعية التى تختلف باختلاف الوسط ؛ فضلا عن أن هناك عمليات متوازية متآزرة ، تندمج حينا وتنفصل حيناً آخر بحيث لا مناص من التحليل الدقيق للوقوف على تشعب النشاط وتعدد مظاهره ، مع مراعاة التمييز دون أن يؤدى التمييز إلى العزل والتفكيك .

ويجب أن نلاحظ أنه من الخطأ أن نعلل مظاهر السلوك فى السنوات الأولى كوقائع مستقلة دون الإشارة إلى الدور الذى تؤديه هذه المظاهر فى تحقيق الغرض الذى يتجه إليه النمو . وعلى ذلك تكون المراحل الفرعية التى يمكن تحديدها بمثابة خطوات مؤدية إلى اكتمال الوظائف الحركية والعقلية . ويمكن تقسيم المرحلة الأولى الرئيسية التى تبدأ بالولادة حتى مطلع السنة الرابعة إلى المراحل الفرعية الآتية : أولا من الولادة إلى انتهاء الأسبوع الثانى ، ثانياً من الأسبوع الثالث إلى الشهر السادس، ثالثاً من الشهر السادس إلى آخر السنة الأولى، وأخيراً السنتان الثانية والثالثة.

فى الأسبوعين الأولين تكون حياة المولود الحديث مقصورة على بعض الحركات المنعكسة وعلى استجابات حركية عامة غير واضحة وغير متآزرة لا ترمى إلى غرض معين ، فضلا عن أن المولود الحديث يقضى حوالى عشرين ساعة فى النوم .

أما المرحلة التى تنتهى عند الشهر السادس فتمتاز بتلاشى النشاط المنعكس وظهور القدرة على توجيه بعض الحركات وترابطها كحركات اليد والعينين . وفى خلال السنة الأولى تستمر عملية نضوج بعض المراكز العصبية الحركية وخاصة جهاز الحركة الإرادية.

وهناك تغير هام يحدث فى أواخر الشهر الأول وهو قابلية المولود الحديث للتأثر بالبيئة الخارجية ومحاولة التكيف لها . ففى الشهر الثانى تظهر الابتسامة كاستجابة اجتماعية لا كمجرد فعل منعكس ، كما تظهر الاستجابات التكيفية لكل ما له اتصال مباشر بحاجات الطفل وإرضائها كالأم مثلا .

ويتقدم النشاط الحسى والحركى بظهور قدرة الطفل على تغيير أوضاع الرأس والجسم ومتابعة الأشياء المتحركة بنظره ، فى حدود ضيقة أولا ثم يتسع مجاله الإدراكى كلما زادت قدرته الحركية . وتؤدى الحركة دوراً هاماً فى تمكين الطفل من إدراك الأشياء متميزة بعد أن كان يدرك مجموعات الأشياء بطريقة مبهمة . وأولى الأشياء التى تتميز فى إدراك الطفل هى التى تمت بصلة ما إلى حاجاته العضوية ودوافعه الوجدانية .

وتزداد قدرة الطفل على الحركات الإرادية فى النصف الثانى من السنة الأولى ، وظهور القدرة على المشى دليل على نضوج الطرق العصبية للحركة الإرادية .

وأهم دليل على النمو العقلى اكتساب اللغة . فذكاء الحيوان محدود بعجزه عن التحرر من قيود المكان واللحظة الراهنة ، فهو بمثابة وسيلة فى خدمة حاجاته العضوية فحسب . وإذا كان ذكاء الطفل فى مرحلته الأولى كبير الشبه بذكاء الحيوان ، غير أنه لن يلبث طويلا حتى يختلف عنه اختلافاً جوهرياً وذلك بظهور القدرة على فهم الرموز وخلق رموز جديدة . وليس فهم الرموز فى الطفل نتيجة تدريب فحسب ، كما هو الحال فى الحيوان ، بل هو مظهر إيجابى لنشاط خاص ، هو نشاط العقل الذى يمتاز قبل كل شىء بقدرته على التجريد والتعميم . نلاحظ فى الإنسان فقط ، دون سائر الحيوانات ، أن الفكر ، وإن كان فى غالب الأحيان وسيلة من وسائل التكيف ، فى إمكانه أن يصبح غاية وأن يتناول موضوعات تسمو على العالم الحسى . ليس العقل نتيجة التدريب ، حتى إذا وصل التدريب إلى تمكين الحيوان من أن يستجيب لبعض الرموز ، بل هو فى الإنسان الشرط الأول والضرورى لاكتساب اللغة .

وتظهر قدرة الطفل على استخدام الرموز فى اصطناعه التعبيرات الانفعالية كلغة للتأثير فى الآخرين[1] . وأول تأثير يوجهه الطفل نحو العالم الخارجى هو الصياح عند مايتحول من فعل منعكس إلى نداء ، أى عند مايتحول إلى أداة . ثم يأخذ

(١) المنهج التكاملى وتصنيف الوقائع النفسية للدكتور يوسف مراد . ص ٢٩٧ من مجلة علم النفس عدد فبراير ١٩٤٦ .

هذا النداء فى التمايز والتنوع فتتفرع منه الأصوات والألفاظ ، بينما يتسع مجال الأشياء والمواقف التى تثير استجابات الطفل . ومما يجدر ذكره هنا قدرة الطفل على أن يتوقع حدوث الأثر الذى يحدثه عادة ما يقوم به من حركات أو مايصدره من أصوات . واللغة من حيث وظيفتها لا تختلف عن سائر الحركات التى يؤديها الطفل لإحداث أثر من الآثار ، فهى وسيلة وأداة فى خدمة العقل ، غير أنها أداة دقيقة مرنة تساعد العقل فى نموه وتمكنه من إبراز شتى ممكناته.

وأكبر دليل على أن اللغة ليست إلا أداة اصطنعها العقل نلمسه بكل جلاء فى تتبع المراحل التى يقطعها الطفل فى اكتساب اللغة . وتكون مرحلة فهم اللغة سابقة على استخدامها لأن الفكر هو رائد اللغة لا العكس . ويتناول فهم الطفل أولا المواقف الإجمالية من حركات الوجه والإيماءات وحركات انتقال الأشخاص من ذهاب وإياب ووقوف ، ثم ينحصر الفهم فى مواقف جزئية ويزداد تمييزاً للتفاصيل وأوجه التشابه والتقابل القائمة بينها .

ويفهم الطفل الحركات والإيماءات قبل فهمه الكلام ، وينفعل أولاً لنغمة الجملة وصفاتها الموسيقية قبل أن يفهم لفظاً منفرداً ، فإذا وجه إليه أمر بلهجة ذات وتيرة واحدة وبدون توضيح الأمر بالإشارة فإنه لا يستجيب .

رأينا أن الموقف الإجمالى فى بادىء الأمر ، بما فيه صوت المتكلم وحركاته هو الذى يوحى بالمعنى إلى ذهن الطفل . ثم يتعلم الطفل أن يربط لفظاً ما بشىء معين بدون الاستعانة بإيماءات المتكلم ، ولكن إذا أطلق المتكلم اللفظ الذى تعلمه الطفل على شىء آخر مماثل للأول من حيث الوظيفة ولكن يختلف عنه من حيث الوضع أو الحجم أو الخصائص الإدراكية الأخرى، أصبح اللفظ غير مفهوم ؛ وفى هذه الحالة لا بد أن يستعين المتكلم بالإشارة لكى يفهم الطفل أن اللفظ الواحد يمكن إطلاقه على أشياء عدة فى نفس الوقت . وهذه المرحلة من أهم مراحل تكوين المعانى الكلية إذ سوف يطلق الطفل اللفظ عينه على أشياء عديدة ، كأنه يدرك أن الاسم ليس من خصائص الشىء الجوهرية ، أى أن الاسم مجرد رمز للمسمى .

غير أن الطفل سوف ينتقل من التخصيص إلى التعميم الأعمى ، مطلقاً اللفظ الواحد على أشياء مختلفة ، وبهذا يبدو أن الطفل يتقهقر إلى الوراء ويعود إلى مرحلة سبق له اجتيازها . ولكن تلك هى سنة التقدم [1] . فليس هذا الارتداد سوى الخطوات التى يخطوها المرء إلى الوراء قبل أن يثب وثبة جديدة . والواقع أن الطفل لايلبث طويلا حتى يتعلم كيف يفرق بين الأشياء المختلفة ، فيقوى تمييزه فى إطلاقه نفس اللفظ على الأشياء المتماثلة .

وكذلك يتطور فهم الطفل للأوامر الموجهة إليه تبعاً لنظام معين يبين لنا مقدار ترقى نضوجه العقلى . فإنه يفهم أولا الأوامر المصحوبة بالإشارة ، ثم غير المصحوبة بالإشارة ، ويفهم أولا الأوامر المتعلقة بحركات جسمه ، ثم الأوامر المتعلقة بتحريك أشياء خارجية ومعالجتها باليد ، وكذلك يفهم أولا الأوامر الخاصة بمعالجة الأشياء الموجودة فى المجال البصرى الراهن ، ثم الأشياء الموجودة خارج هذا المجال ، وحينئذ تنضج قدرة الطفل على تصور الأشياء الغائبة وتذكرها .

وعند ما يبتدئ الطفل فى أواخر السنة الثانية بفهم مايدور حوله من حديث ، فانه يفهم أولاً الحديث الذى يشير إليه أو إلى ما يعمله أو ما يجب أن يعمله ، ثم يفهم بعض أشطار الحديث الذى يدور حوله حتى ولو لم يكن هو موضوع هذا الحديث ، ولكن بشرط أن يتناول الحديث أمراً يثير اهتمامه وكثيراً مايدفع إلى التدخل فى الأمر من تلقاء نفسه .

ويكشف الطفل رويداً ، بفضل عناية البيئة الاجتماعية بأمر تلقينه اللغة ، قدرة الآلة اللغوية على حمل الآخرين على إرضاء رغباته . فقد يلاحظ الطفل أن من حوله يفهمون ألفاظه بأسرع مما يدركون معنى حركاته ، وذلك خاصة عند ما يكون الشىء الذى يبتغيه غير موجود مباشرة فى مجال الإدراك كما أنه لايلبث طويلا حتى يدرك أن فى إمكانه أن يتكلم بدون أن ينقطع عما يقوم به من سلوك حركى ومن

(١) المنهج التكاملى وتصنيف الوقائع النفسية للدكتور يوسف مراد . ص ٢٩٠ من مجلة علم النفس عدد فبراير ١٩٤٦ .

معالجات يدوية ، وتلك ميزة كبيرة تفوق بها لغة الكلام لغة الحركات والإيماءات .

٣ — مراحل تطور الميل الجنسي

إن لنمو الوجدانيات فى الطفل أثراً بليغاً فى تكوين شخصيته وفى الاتجاهات التى سيتخذها سلوكه فى المستقبل . وقد كشفت لنا مدرسة التحليل النفسى عن جانب هام من حياة الطفل الوجدانية بدراستها لتطور الميل الجنسى وما قد يعتريه من انحراف .

والواقع أن دراسة الجنسية فى الطفل من وجهتها النفسية حديثة العهد إذا قارناها بدراسة غيرها من الوظائف . ويرجع الفضل الأكبر فى إماطة اللثام عن المظاهر الجنسية فى سلوك الطفل إلى فرويد ومدرسته المعروفة بالتحليل النفسانى . ومما يزيد من فضله شجاعته فى مواجهة هذا الموضوع الذى كان يحيط به ستار من التكتم والتحريم ، خاصة فى أواخر القرن التاسع عشر . غير أن هذا الموضوع قد استرعى اهتمام بعض الكتاب والروائيين . فحاولوا الكشف عن بعض نواحيه أمثال روسو فى القرن الثامن عشر وألفرد دى موسيه وستندال وبلزاك فى القرن التاسع عشر فى قصصهم واعترافاتهم .

وقبل عرض آراء فرويد سنشير بكلمة وجيزة إلى المنهج الذى انتهجه للوصول إلى نتائجه وما يمكن توجيهه من اعتراض على هذا المنهج من الوجهة العلمية . يصور لنا فرويد مراحل الجنسية فى نظريته بأنها المراحل العادية التى يجتازها كل طفل حتما . غير أنه لم يكشف هذه المراحل بدراسة الطفولة مباشرة بل بدراسة الحالات الشاذة فى البالغين وبالرجوع فى ضوء المعلومات الكلينيكية (أى التى يحصلها فى أثناء العلاج) إلى ما يجب أن تكون عليه مراحل النمو فى السنين الأولى من حياة الطفل .

وأهم اعتراض يوجه إلى هذا المنهج هو قصره على الحالات المرضية ثم الاعتماد على الاستنتاج التركيبى أو الاستدلال على ما كانت عليه السنين الأولى بما هو ملاحظ

الآن فى سن العشرين أو الثلاثين . فمعارضو فرويد يطعنون خاصة فى قيمة الأدلة التى يستند إليها لتقرير نشاط جنسى فى الطفل و إظهاره فى صورة غاية فى التعقد والتشعب ، بل فى صورة مشوهة إذ يعزو فرويد إلى الطفل سمات الشخص المنحرف المريض .

ويقول فرويد رداً على المعارضة إن موقف المؤلفين الذين ينكرون وجود نشاط جنسى لدى الطفل يرجع إلى سببين : الأول ذاتى خاص بالمؤلفين أنفسهم ، والثانى موضوعى خاص بأحوال الطفل النفسية .

والسبب الأول هو إمساك المؤلفين عن الكلام فى النشاط الجنسى عند دراسة نفسية الطفل لأسباب خلقية عرفية ، ولاعتقادهم بأن المظاهر الجنسية لابد أن تتبع مظاهر الوظيفة التناسلية ، فحصروا كل ماهو جنسى فى دائرة ما هو تناسلى فقط .

أما السبب الثانى وهو أهمهما ، فهو نسيان الطفل حوادث حياته الأولى حتى السنة الرابعة أو الخامسة وذلك بتأثير ما يعرف بالكبت اللاشعورى ، والاعتقاد بأن هذا النسيان نهائى ، من المحال علاجه واستعادة ذكرى الحوادث التى شملها . والواقع أن مذهب فرويد يدور حول هذه النقطة المركزية وهى الكبت . فطريقة التحليل النفسانى ترمى إلى غرض واحد هام : هو استرجاع الذكريات الوجدانية المنسية المكبوتة . وبهذه الكيفية يسهل الكشف عن شعور الطفل بوساطة دراسة الآثار التى تركتها التجارب الوجدانية الأولى فى شعور البالغ . وعلى الرغم من أن معلوماتنا الأولى عن محتويات الشعور الطفلى غير مباشرة فإنها تساعدنا على فهم الملاحظات المباشرة التى نقوم بها على الطفل ، كما أنها تساعدنا على تحليل الأعراض المصاحبة للاضطرابات العصبية والنفسية التى تظهر فى سن الطفولة .

يتلخص منهج فرويد إذن فى وصف سلوك الطفل وشعوره فى ضوء تحليل سلوك البالغ وشعوره . ومن أهم أسس هذا المنهج ما يعرف بقانون الإعادة Law of Recapitulation . فالمراهقة تمر بمراحل شبيهة بمراحل الطفولة من حيث تركيز اللذة فى مواطن دون غيرها والكشف عن موضوع التعلق أو العشق . ولكن يجب ألا تنسينا أوجه الشبه الفوارق الأساسية الموجودة بين الطفولة والمراهقة من حيث

قابلية كل من الطفل والمراهق للتأثر بالبيئة العائلية وبالقيم الخلقية ، هذا فضلا عما يضيفه التقدم العقلى ونمو المدارك إلى شخصية المراهق من استعدادات وصفات جديدة .

ثم إن فرويد اهتم خاصة بحالات المرض والانحراف وهو يعتبر هذه الحالات ناشئة عن وقوف النمو الجنسى والوجدانى عند مرحلة طفلية أو عن الارتداد إلى هذه المرحلة تحت تأثير انفعالات قوية أو تجارب مؤلمة تؤدى إلى تضعضع الشخصية وتفككها . ولكن هل يحق لنا أن نعتبر هذه الحالات المنحرفة صورة صادقة لما كان عليه النمو الجنسى والوجدانى فى مراحل الطفولة الأولى ؟ هذا ما يشك فيه معارضو فرويد ولذلك انتهجوا منهجاً تصاعديا مبتدئين من شعور الطفل للوصول إلى شعور المراهق والبالغ ومسترشدين فى هذه الحالة بما تسفر عنه دراسة الشخصية بأكملها التى تضم من بين ماتضم الناحية الجنسية ، وسنعرض لنتائج هذا المنهج بعد النظر فى آراء فرويد مبينين كيف يمكن الاستفادة بالنتائج التى وصل إليها و إدماجها فى الصورة المتكاملة لشخصية الطفل والمراهق .

يقوم مذهب فرويد على معنى الصراع الدائم بين قوتين متعارضتين أو مبدأين متقابلين . يحوى كل فرد كمية كبيرة من الطاقة الحيوية أطلق فرويد عليها كلمة « ليبيدو » Libido وهى كلمة لاتينية تفيد معنى الشهوة . واعتبر هذه الشهوة شبقية فى جوهرها erotic وفيها تتمثل غريزة الحياة . ثم رأى فرويد فى مؤلفاته الأخيرة أن هناك قوة ثانية مضادة للأولى ، مفطورة أيضاً فى الإنسان ، ترمى إلى الموت والدمار هى غريزة الموت . وعند ماتكون هذه القوة المدمرة موجهة نحو الداخل أى نحو الشخص ذاته ينشأ عنها الميل إلى تعذيب الذات وعقابها وإفنائها ، فى حين أنها تتخذ صورة الاندفاعات العدوانية القاسية عند ما تتجه نحو الخارج أى نحو أشخاص آخرين .

وهناك أيضاً مبدآن متنافران يتنازعان شعور الفرد وسلوكه هما مبدأ اللذة ومبدأ الواقع . فكل ما يعمله الفرد للحصول على لذة عاجلة أو لتجنب ألم يكون

خاضعاً لمبدأ اللذة . وذلك المنهاج فى السلوك خاص بالحياة اللاشعورية و بالأطفال و بالعصابيين أى بالمصابين بأمراض نفسية Neurotics . أما السلوك الذى يراعى فيه صاحبه مقتضيات الحياة الاجتماعية والظروف الخارجية ، أى السلوك الذى يرمى إلى التوافق والتكيف ، فيكون خاضعاً لمبدأ الواقع . وهناك عوامل أخرى مزدوجة ومتنافرة فى نفس الوقت تتخذ من حياة الفرد وشعوره مسرحاً لتطاحنها كالذكورة والأنوثة ، والحب والبغض . ويقوم الصراع بين هذه المبادئ والعوامل المتقابلة ؛ وفى حالة الصحة العقلية والتكيف الناجح ينتهى الصراع بنوع من التراضى . أما فى حالة عدم تحقيق هـــذا التراضى ، فتكون النتيجة ظهور الأعراض العصابية والأمراض النفسية .

تمر الجنسية فى نموها بثلاثة أطوار : الطفولة وطور الكمون الجنسى وطور المراهقة . وقد اهتم فرويد خاصة بالطور الأول الذى ينتهى عند سن الخامسة أو السادسة وقد قسمه إلى ثلاث مراحل . المرحلة الفمية Oral والمرحلة الإستية (الشرجية) Anal وهما غير تناسليتين ، والمرحلة التناسلية الأولى المعروفة بالقضيبية Phallic والتناسلى هنا نسبة إلى أعضاء التناسل لا إلى الوظيفة .

وتحدث فى طور الطفولة عمليتان متصلتان إلى حد ما ، الأولى تركيز الليبيدو libido فى مناطق الجسم المثيرة للذة والثانية الكشف عن الشخص الآخر الذى سيصبح موضوعا خارجيا للعشق أو التعلق الجنسى . وتحدث العملية الثانية فى المرحلة القضيبية .

لا شك فى أن المولود الحديث لا يلبث طويلا حتى ينزع إلى البحث عن اللذة الجسمية لمجرد التمتع بها أو لما تحدثه من إرضاء أو تخفيف للتوتر والضيق . ومن مصادر اللذة تنبيه العضلات وسطح الجلد بالدلك والمداعبة . غير أن توليد اللذة سيتركز بكيفية خاصة فى بعض المناطق دون أن يكون فى بادئ الأمر صلة بين منطقة وأخرى . وهذه المناطق هى الأغشية التى تكسو الشفاه والخدين واللسان والثديين والإست ومجارى البول وما يتعلق بهـا . وستتجمع هذه اللذات الفرعية فيما بعد

وتتلاقى فى سن المراهقة؛ ومن الملاحظ أن عملية التجمع والتوحيد تتبع تكوين معنى الشىء المحبوب أو موضوع العشق أو الحب .

والمرحلة الأولى هى كما ذكرنا المرحلة الفمية التى تكون فيها الليبيدو مركزة فى منطقة الفم . ويحصل الرضيع على اللذة بوساطة الرضاعة ومص الإبهام ، ثم بعد حين بالعض والمضغ وهما من مظاهر الميل إلى العدوان والتحطيم . ويصف فرويد هذه المرحلة بأنها مرحلة التعشق الذاتى البدائى ، أى أن الليبيدو لا تكون موجهة نحو غرض أو موضوع متميز عنها . غير أن هذه التسمية مضللة إذ لايوجد فى الواقع فى هذه المرحلة ماهو شبيه بالتعشق إذ أن العشق يقتضى وجود طرفين متميزين ، والطفل فى الشهور الأولى عاجز عن أن يدرك أنه ذات ، فهو لايزال فى مرحلة اللاتغاير indifferenciation حيث لايوجد تمييز واضح بين الأنا واللا أنا . فيستحسن تسمية هـذه المرحلة بمرحلة التلذذ اللا تعشقى ، إذ لاتعدو لذات الرضيع أن تكون سوى إحساسات جسمية . أما تعلق الرضيع بأمه فهو بمثابة تعلقه بأى جزء من جسمه من شأنه أن يشبع رغبته فى اللذة . فإنه لايتعلق بأمه من حيث هى ذات متميزة عن ذاته ، بل من حيث هى مجرد طعام له .

وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر يفقد التلذذ الفمى من سيطرته ليحل محله فى المرتبة الأولى التلذذ الإستى . غير أنه فى بعض الأطفال يظل التلذذ الفمى متغلباً فيشاهد فى بعضهم استمرارهم فى مص الإبهام حتى السنة الثالثة أو الرابعة . وتفاديا لهذه العادة السيئة — وهى سيئة لأنها تعوق التطور الطبيعى — يجب حرمان الطفل من المصاصة الصناعية قبل انتهاء السنة الأولى .

ويشاهد فى المرحلة الإستية تغير هام فى سلوك الطفل . فإنه أخذ يميز بين الأشياء الخارجية المتميزة عنه ومن ضمن هذه الأشياء برازه ، هذا الشىء الذى منه والذى سينفصل عنه . ويمكن القول إن التعشق يظهر لأول مرة فى هذه المرحلة . فقد وجدت الطاقة الوجدانية الغريزية معشوقها الأول ويكون التلذذ الإستى على ضربين لذة الإخراج والقذف ثم بعد حين لذة الإبقاء والإمساك . وترجع بعض الحالات

الشاذة فى البالغين إلى وقف النمو عند إحدى مراحل الطفولة الأولى والارتداد إليها فالقسوة مثلا هى رجوع إلى طور التلذذ بالعض والمضغ ، كما أن البخل والعناد ناتجان عن الارتداد إلى طور التلذذ الإستى بالإمساك والإبقاء .

ويكون الطفل فى هاتين المرحلتين منقاداً لمبدأ اللذة ولميوله العدوانية التحطيمية فلا بد من تدخل مبدأ الواقع تحت تأثير التربية . فالفطام مثلا من عوامل إضعاف اللذة الفمية وتحويل الليبيدو عن منطقة الفم . وفيما يختص بتحويلها عن منطقة الإست لابد من أن تحاول الأم تنظيم عملية التبرّز فى طفلها ، فتدربه على القيام بهذه العملية فى ساعات وظروف معينة ، وتظهر له اغتباطها كلما تقيد بالنظام واستفاد من التدريب أو توبخه وتعاقبه كلما تمرد وعصى . فإن تلقين الطفل معنى النظافة وإفهامه أنها أمر مستحب فى حين أن القذارة مستقبحة يجب تفاديها من أهم العوامل المقومة لخلق الطفل . وسيتأثر مدى حياته بهذا الدرس الأول وبهذه التجارب الأولى التى تولد فى نفسه رويداً رويداً معانى السخط والرضى ومعانى الثواب والعقاب . ويترتب على آثار التربية أن تتحول الطاقة الوجدانية من طور الأخذ والضم إلى طور العطاء والبذل والتضحية ، فإن أول هبة يقدمها الطفل إلى أمه ، أى أول مظهر للحب الموجه نحو الآخرين هو القيام بعملية التبرّز بدون تلويث ثيابه .

سبق أن قلنا إن فرويد يعتبر المرحلة الفمية والمرحلة الإستيه غير تناسليتين ، أى أن لاصلة بينهما وبين أعضاء التناسل على العكس من المرحلة القضيبية التى تلى المرحلة الإستية ، غير أن الواقع لايؤيد هذه التفرقة . فإن الرضيع وهو فى أواخر المرحلة الفمية قد يحقق أحيانا اللذة الجسمية عن طريق لمس أعضائه التناسلية والعبث بها . ومن العسير نعت هذه اللذة بالجنسية إذ أن التمييز بين الجنسية لم يتحقق بعد فى شعور الطفل . فهى لذة تناسلية بالنسبة إلى المنطقة فقط ولكنها لذة عامة غير نوعية . ومهما يكن من أمر فسوف نرى كيف أن هذه الصعوبات التى يثيرها فرويد باستخدامه لفظى جنسى وتناسلى عند ما يتحدث عن السنة الأولى من حياة الطفل تزول فى ضوء دراسة الشخصية بأكملها فى أثناء تكونها ونموها .

أما المرحلة الثالثة — وهى المرحلة القضيبية التى تدوم من أواخر السنة الثالثة حتى السادسة — فهى تناسلية وجنسية إذ يبدأ الطفل فى هذه السن يميز بين الجنسين بما يشاهده من اختلاف بين الصبي والبنت من حيث الملبس ووسائل اللعب وشكل الجسم واستخدام ضمير المذكر والمؤنث إلخ . . .

فكل ما سبق تفصيله بشأن المرحلتين الأولى والثانية ينطبق على الصبى والبنت على السواء . أما فى المرحلة الثالثة فتأخذ محتويات الشعور فى الصبى وفى البنت فى الاختلاف والتميز . وفى سن الثالثة يمر الطفل بأزمة نفسية سيبزغ خلالها شعور الطفل بذاتيته . فهى الأزمة الأولى التى يعانيها الطفل فى أثناء تكوين شخصيته الذاتية أو أنيته وسيمر بأزمة مماثلة لها فى طور المراهقة عندما يكتمل شعوره بذاتيته . ومن أهم عوامل تكوين الشعور بالأنا أو بالذات انفعال الغيرة الذى يتخذ شكلا واضحاً بين السنة الثالثة والرابعة .

وعند تكوين الشعور بالأنا Ego تتعلق الطاقة الوجدانيه بذات الطفل ، فيحب الطفل ذاته وقد سمى فرويد هذا المظهر من حب الذات بالنرجسية narcissism نسبة إلى أسطورة نرسيسوس الذى عشق نفسه بعد أن استغرق طويلا فى تأمل صورته فى الماء . ويعتبر فرويد الطبع المركز حول ذاته رجوعاً إلى طور النرجسية الأولى وسيمر المراهق فى بداية المراهقة بمرحلة نرجسية ثانية متخذاً من نفسه موضوعاً لعشقه .

وفى المرحلة القضيبية يبدأ الصبي يشعر بأن جنسه أرقى من الجنس الآخر، وأن الدور الذى سيؤديه أخطر وأجل من دور البنت . وهو يعتبر الجنس الآخر ناقصاً من الوجهة العضوية وقد يخالجه أحياناً الخوف الشديد من أن يحرم مما يميزه عنه ، وقد ينشأ من هذا الخوف ما يسميه فرويد بعقدة الإخصاء castration complex وكذلك الطفلة قد تعتبر نفسها أحط من الصبى ويخشى عليها أن لا تتحرر من هذا الاعتقاد الذى من شأنه أن يؤدى فى المستقبل إلى الانحراف والاختلال، ومن هنا قد ينشأ ما يعرف بعقدة الذكورة masculinity complex . على أن نفس الخطر قد يهدد الصبي على الرغم من شعوره بتفوق جنسه على الآخر . فإنه لا يلبث طويلا حتى

يشعر بطريقة غير واضحة أن للجنس الآخر مزايا هو محروم منها ، فيشق عليه ذلك ويمر كالبنت على السواء بدور تراوح بين قطبى الذكورة والأنوثه . وهنا أيضا يجب أن تتدخل العوامل التربيبية بطريقة فعالة ، فعلى المربى أن يُثبِّت كلا من الصبى والبنت فى جنسه وأن يساعدهما على إدراك ما يميز الرجل والمرأة من حيث وظيفتهما فى الأسرة والمجتمع .

وفى هذه المرحلة أيضاً يظهر ما يسميه فرويد بالعقدة الأوديبية Oedipus complex نسبة إلى أسطورة أوديبوس الذى نشأ بعيداً عن أبويه فشاءت الأقدار أن يقتل أباه وأن يتزوج من أمه دون أن يتعرفهما . والعقدة الأوديبيه أول مظهر من مظاهر النشاط الجنسى لدى الطفل ، فيتعشق الطفل أمه والطفلة أباها ويصحب هذا التعشق كراهية الطفل نحو أبيه أو الطفلة نحو أمها . وقد تتعقد هذه الصورة ، فقد رأى فرويد أن شعور الطفل يكون مزدوجاً حاوياً العاطفتين المتقابلتين من حب وبغض نحو شخص واحد . وقد أثار ما ذهب إليه فرويد بصدد هذه العقدة نقداً عنيفاً لاذعاً . فكثير من علماء النفس الذين اعتنوا بدراسة الطفولة عناية خاصة ينكرون وجود مثل هذه العقدة[1] . ورد فرويد على معترضيه بوضعهم فى حلقة مفرغة لا يمكن الخروج منها ، فإنكار معارضيه لعقدة أوديبوس يرجع إلى الكبت اللاشعورى ، ولا يمكن الإيمان بالكبت اللاشعورى كما يصفه فرويد إلا بالاقتناع بصحة مذهبه . ومهما يكن من أمر حقيقة هذه العقدة فإن العوامل الاجتماعية وحنان الوالدين نحو أطفالها بدون أن يؤثرا أحداً على الآخر بطريقة صارخة ، وكذلك عندما تحيا الأسرة فى جو من الوفاق والمودة ، كل ذلك من شأنه أن يخفف من آثار البغض والكراهية .

(١) من أمثال هؤلاء العالم Valentine فى كتاب حديث ظهر سنة ١٩٤٢ Psychology of Early Childhood فقد أراد أن يتحقق من وجود هذه العقدة في أطفاله وفي أطفال زملائه فكانت نتائج بحوثه سلبية . أنظر فى القسم الانجليزي من هذا العدد المقال الذى كتبه Valentine خصيصا لمجلة علم النفس .

ويقول فرويد إن لهذا التعشق المتغاير أهمية كبرى فى تنمية عواطف الطفل وتوجيه الميل الجنسى توجيها طبيعياً ، إذ أن التطور السوى يقتضى نقل هذا التعشق من ممثلى الجنسين ، أى من الأم والأب ، إلى الشخص الذى سيختاره البالغ فيما بعد موضوعاً لحبه السوى ، أى الحب الموجه لممثل الجنس الآخر . ويعتبر فرويد أن الشذوذ الجنسى المعروف بالجنسية المثلية homosexuality والذى يؤدى إلى اللواط يرجع إلى عدم تحرر الطفل أو المراهق من تعلقه المفرط بأمه[١] .

وإعداد الطفل لدخول عالم الحب الجنسى المتغاير أو الجنسية الغيرية heterosexuality يتم فى المرحلة الرابعة ، وهى ما يسميه فرويد بطور الكمون الجنسى sexual latency الذى يمتد من السادسة إلى الثانية عشرة تقريباً . وليست هذه المرحلة مرحلة ركود وسكون ، بل يتطور فيها التعشق تطوراً محسوساً . وأول مظهر منه تحرير التعشق من ربقة الأوصال الجسمانية . فتحل العقدة الأوديبية بأن ينفصل التعشق عن الأم لدى الطفل ويزول ما كان يشوب محبته نحو أبيه من نفور وكراهية. ولهذه المرحلة أهمية عظيمة فى تكوين الشخصية إذ تنصرف الوجدانيات إلى عالم السمو ويميل الطفل إلى الإيثار والتضحية وإنكار الذات ، ويبدأ فى إدراك معانى الاعتماد على النفس والمجازفة والشجاعة وتطبيق هذه المعانى فى سلوكه اليومى .

وقبيل انتهاء هـذه المرحلة تبزغ تباشير الصداقة الممزوجة بحب برىء نقى طاهر، وقد يكون المعشوق إما شخصاً من الجنس الآخر أو من نفس الجنس . ويجب ألا تعتبر هـذه المظاهر الغرامية مظاهر شاذة منحرفة ، فقد ترتقى عواطف الطفل الـكبير إلى أقصى حد من الإعلاء والتسامى . وأما الشاذ فهو الذى لم يشعر فى هذه السن بالحاجة إلى التعلق بصديق يضحى فى سبيله ويخاطر لإرضائه . فإن من أطيب الذكريات إلى المرء تلك التى تحيى من جديد الصداقات والمودات الأولى التى تعطر بأريجها الحياة كلها .

---

(١) راجع في هذا العدد حالة « ا » فى مقال الأستاذ عبد العزيز عبد المنعم المليجى : كيف ينعدم التوافق الاجتماعى .

٣ مراحل تكوين الشخصية

فى هذه الصورة المعقدة التى ترسمها مدرسة التحليل النفسانى لتطور الجنسية فى الطفل، ومن ثم تطور شخصيته ، نلاحظ بوضوح الدور الأساسى الذى تؤديه الغريزة الجنسية وكيف أن مظاهرها المتعاقبة تعين المراحل التى تمر بها الشخصية فى أثناء نموها . ويبدو أن كل نزعات الطفل وانفعالاته وعواطفه تصدر كلها عن الليبيدو وتدور حولها وترجع دائماً إليها . قد تبدو هذه الطريقة فى الوصف والتعليل مغربة بوحدتها وتماسكها وربما ببساطتها، إذ أنها ترجع فى نهاية الأمر إلى تعليل واحد لا يتغير . فمن اليسير دائماً مع شىء من المهارة فى تلمس الرموز وتأويلها إرجاع كل شىء إلى الغريزة الجنسية .

والواقع أن هناك نزعات أخرى فى الطفل تظهر في سلوكه وتوجهه تبعاً للمواقف الخارجية . وإذا كان للسلوك عوامل فطرية بدون شك ، فإن هذه العوامل هى بمثابة قدرات قد تظهر أو لا تظهر وقد تتخذ هذه الصورة أو تلك تبعاً لعوامل البيئة العائلية التى يحيا فيها الطفل . فالسلوك هو فى نفس الوقت تعبير تلقائى إلى حد ما واستجابة لمواقف خارجية [١] . ونظراً لما تمتاز به العوامل الفطرية من مرونة ومن عدم تعين وتمايز يمكن القطع بأن الأثر الأكبر يرجع إلى العوامل الخارجية . فإن العلماء الذين درسوا الشعوب البدائية حيث تكون نظم التربية والقيم الخلقية مختلفة عما هى عليه فى الشعوب المتحضرة لاحظوا عدم ظهور طور الكمون الجنسى فى الطفل . وكذلك فى الشعوب التى تكون فيها السلالة عن طريق الأم والسلطة للخال فلا وجود لعقدة أو ديبوس ، بل يصبح الخال هو الشخص المبغوض ، لا الأب ، لأنه يمثل السلطة . فالانفعالات والعواطف هى بالأخص من ضروب الاستجابة لموقف خارجى، وما يهم العالم هو دراسة الواقع كما هو وحصر قيمة النتائج فى دائرة الواقع الذى يتناوله البحث . إننا لا ننكر أهمية الدافع الجنسى ولكننا ننكر أنه الدافع الوحيد . ولم يكتسب هذا

(١) J. L. Moreno and Florence B. Moreno. Spontaneity Theory of Child Development. Sociometry, Vol. VII, May 1944

الدافع مثل هذا القدر من الأهمية فى نظر بعضهم إلا لأنه فصل عن سواه من الدوافع التى تعين مظاهر السلوك وتوجهها فى أثناء تفاعلها مع عوامل البيئة الخارجية . فإن هناك دافعاً هاماً يكاد يكون أهم من الدافع الجنسى لأنه أعم منه وهو رغبة الطفل فى التفوق والتغلب على ما يشعر به من قصور وعجز ، هو رغبته فى الظهور ، و إثبات قدرته على الحركة والعمل والتأثير فى العالم الخارجى تعويضاً عن شعوره بالقصور والعجز (١) . وقد تتخذ أساليب التفوق أو الظهور أو التظاهر شكلا جنسياً وذلك للحساسية الخاصة التى تمتاز بها المنطقة التناسلية . وقد تكون هذه الأساليب سوية أو منحرفة تبعاً لاتجاه الشخصية الرئيسى أو الأسلوب العام الذى ينتهجه الطفل أو المراهق فى حياته كالخوف أو العدوان أو حب التعاون .

وقد أدى منهج فرويد إلى الوقوع فى الخطأ فيما يختص بطبيعة اللذة ، فاعتبر كل لذة جنسية فى جوهرها ، كما أنه أعتبر الطاقات الحيوية والنفسية جنسية فى أصلها . والواقع أن اللذة تصحب عمل كل وظيفة عند ما يكون هذا العمل سويا معتدلا وتتشكل اللذة باختلاف الوظائف ، وقد تكون اللذة ناتجة عن النشاط من حيث هو مجرد نشاط دون تخصص ولا تنوع وقد تتحول اللذة التى تكون فى السنوات الأولى من حياة الطفل غير مخصصة إلى لذة نوعية يمكن نعتها بالجنسية مثلا إذا كانت نتيجة تنشيط الوظيفة الجنسية فيما بعد ، فإنه من الخطأ اعتبار اللذة التى تصاحب عملية المص أو الإبراز جنسية لأنها قد تصاحب فيما بعد تنشيط الوظيفة الجنسية .

فلا بد إذن من توخى الحيطة والحذر عندما نتحدث عن نشاط الطفل فى سنواته الأولى ، ولا بد من مراعاة جميع العوامل التى تؤثر فى تكوين شخصيته وأسلوبه الاستجابى . وعلى ذلك يجدر بنا أن نذكر المراحل العامة التى تمر بها الشخصية فى أثناء نموها وكيف أن هذه المراحل تنتظم المظاهر الجنسية التى تصبح حينئذ ثانوية وخاضعة لأسلوب الشخصية العام .

---

(١) أنظر كتاب الأستاذ اسحق رمزى : علم النفس الفردى ، ص ٦٢ وما بعدها و ص ٨٢ وما بعدها عن القصور والتعويض . منشورات جامعة علم النفس التكاملى ، الناشر دار المعارف للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٤٦ .

ودراسة الطفولة من الوجهة السيكولوجية لا تزال فى طورها الأول وهو طور الدراسات الجزئية التى تتناول ناحية من النمو دون غيرها . والواقع أن عهد الطفولة غزير المادة متشعب النواحى يزداد تعقداً مع مرور الشهور والسنوات ومع ظهور الوظائف الجديدة وتعاونها مع الوظائف التى سبق ظهورها . ويمكن تمثل نموشخصية الطفل فى صورة جدول تزداد مياهه غزارة كلما تعددت الروافد التى تصب مياهها فى الجدول الأصلى .

وقد حاول بعض علماء النفس تصوير مجموعة هذه التيارات المختلفة التى تشترك فى تكوين الشخصية مستعينين بما وصلت إليه البحوث المتفرقة من نتائج متممة بعضها لبعض . فهناك دراسات لنمو النشاط الحسى والحركى ، وغيرها لترقى قوة الإدراك والفهم والتعبير اللغوى ، ثم بحث النمو الوجدانى وتكوين العواطف وكيفية ظهورها فى المواقف الاجتماعية المختلفة التى يوجد فيها الطفل .

وقد انتهت المقارنة بين نمو هذه الوظائف المختلفة إلى كشف بعض قوانين عامة تفسر لنا سير النمو على العموم سواء كان حركياً أو عقلياً أو وجدانياً .

ومن أهم هذه المحاولات التى ترمى إلى التأليف بين نواحى النمو المختلفة وتنظيمها فى نظام شامل واف محاولة العالمة النمساوية شارلوت بوهلر[1] Charlote Bühler مؤسسة مدرسة ڤينا لدراسة الطفولة الأولى — ترى بوهلر أن مراحل نمو الطفل تمتاز بتعاقب نماذج من الوظائف والسلوك . فتمتاز المرحلة الأولى بكونها مرحلة الوظيفة البحتة ، أى العمل لمجرد العمل بدون نظام ولا قصد سوى العمل والنشاط . فالطفل يقبض على كل شىء يمكن تناوله فيجذبه أو يحركه أو يقذفه مكرراً الحركات مغتبطاً بما يحدثه من أثر دون مراعاة خصائص الأشياء التى يعالجها بيديه وفمه . ثم فى أواخر السنة يأخذ الطفل يراعى بعض خصائص الأشياء مكيفاً حركاته تبعاً لها . وفى أواخر السنة الثانية يدرك الطفل أن فى إمكانه أن يبتدع وأن يأتى بأعمال جديدة وأن يغير من نمط سلوكه .

---

(١) Ch. Bühler. From Birth to Maturity. London, 1937.

وتتطور العلاقات بينه و بين الأشخاص الآخرين تبعاً للمنهج عينه . فيمر بمرحلة الصلة الاجتماعية غير المعينة حيث يكون التميز بين الأفراد ضعيفاً جداً غير ثابت ، فقد يحل فرد محل الآخر فى عنايته بالطفل دون أن يدرك الطفل هذا التغير . ثم تأتى مرحلة الصلة الاجتماعية المعينة حيث يراعى فيها الطفل ما يميز بين الأشخاص من صفات خاصة . ومقدرة الطفل على الإبداع والخلق تظهر فى المجال الاجتماعى باندماج الطفل فى جماعة وفيما يتخذه اللعب عنده من صور جديدة . وفى خلال هذا التطور الاجتماعى تتضح مظاهر الغيرة والمشاركة الوجدانية والتعاطف فتساعد الطفل على إدراك ذاته بعض الشىء وما يميزها عن الأشخاص الآخرين . ففى أواخر السنة الثالثة أو فى بداية الرابعة يحدث ما يسميه علماء النفس بأزمة الشخصية الأولى حيث يحل التأليف بين نواحى الشخصية من وجدانية وعقلية محل التشتت وعدم التكامل . ويمتاز هذا الطور الأول الذى ينتهى عند السنة الخامسة بتركيز وجدانيات الطفل وأحكامه ومظاهر سلوكه حول ذاته .

ومن السنة السادسة حتى العاشرة تضعف النزعة الذاتية ويأخذ الطفل يهتم بالعالم الخارجى من حيث هو موضوع أو شىء مميز عن نفسه . تلك هى المرحلة الواقعية أو الموضوعية التى تتكون خلالها معانى الواجب والاحترام والتعاون مع الآخرين . أما فى سن المراهقة فتعود النزعة الذاتية إلى التغلب وتنشأ ضروب جديدة من الصراع بين المراهق ونفسه و بينه و بين البيئة العائلية والاجتماعية .

وقد وضحت عالمة أخرى تدعى أبرمسن Jadwiga Abramson [1] مراحل نمو الشخصية خاصة من الوجهة الوجدانية والخلقية . فقد قسمت سنى الطفولة والمراهقة إلى أربع مراحل :

١ — مرحلة الذاتية البحتة من الولادة إلى نهاية السنة الثانية [2] . وتمتاز

(١) J. Abramson. L'enfant et l'adolescent instables. Alcan, Paris, 1940

(٢) يجب أن نلاحظ أن الحدود الزمانية التى يذكرها المؤلفون هى حدود متوسطة لا تنطبق على جميع الأطفال . فهناك على جانبى الحالات المتوسطة حالات تقدم وخاصة حالات تأخر .

بالنشاط الوظيفى البحت والاندفاعية وعدم القدرة على تصميم الفعل الإرادى وأخيراً بضعف التميز بين الحدود التى تفصل الطفل عن الوسط الذى يحيط به . فكل مظاهر النشاط صادرة عن المركز دون أن تنعكس عليه ، أى أن مجال الروية والتبصر والتميز فى اختيار نوع الاستجابة ضيق جداً .

٢ — مرحلة المعارضة السابقة لفهم نظم التهذيب من السنة الثالثة حتى السادسة وهى تعرف أيضاً بمرحلة أزمة الشخصية الأولى أو تكوين الشعور الذاتى . وتبدأ بعد اكتمال أجهزة الإدراك والتعبير الانفعالى واللغوى .

ومن أهم العوامل التى تؤدى إلى ظهور الأزمة النفسية اصطدام إرادة الطفل الناشئة بإرادة البالغين الذين يحاولون تدريب الطفل على النظام وحمله على التبصر . فبصدد هذه المواقف الجديدة يكون الطفل أول الأمر عاجزاً عن تحقيق التكيف والتوافق ، فيمر بحالات خوف ودهشة تعقبها محاولة الطفل الخضوع للنظام المفروض عليه . وبهذه الكيفية تقوى إرادة الطفل رويداً رويداً وتزيد قدرته على الكف وضبط النفس . ويلاحظ فى أثناء هذه المرحلة إبطاء النمو العقلى وركوده .

٣ — مرحلة غزو العالم الخارجى من السنة السادسة حتى الثانية عشرة . تمتاز هذه المرحلة بظهور اهتمام الطفل بالأشياء الخارجية من حيث هى موضوعات متميزة منه ، مستقلة عنه . وإذ أن الأغراض والغايات التى يرمى الطفل إلى تحقيقها تكون مطابقة إلى حد كبير لما ينتظره منه الأهل والمربون فإنه لايلبث أن يتشرب بروح التعاون وأن يفهم معنى الواجب وضرورة النظم الاجتماعية والخلقية . ويتحقق التوازن بين النزعات الذاتية والنزعات الموضوعية أو بين ما يسميه فرويد بمبدأ اللذة ومبدأ الواقع . ويبدو كأن جميع قوى الطفل الوجدانية تضع نفسها فى خدمة نواحى الشخصية الأخرى كنمو الاستعدادات العقلية والفكرية وفهم الأوامر والنصائح والتوجيهات التى ترمى إلى تقويمه الاجتماعى والخلقى . ويتعلم الطفل كيف يهتم بما يدور حوله وملاحظته بعناية وكيف يقمع نزواته ورغبته فى اللعب لكى يشترك فيما

يفعله الآخرون . وفى نهاية الأمر تقوى فيه القدرة على المثابرة ومواصلة الجهد حتى الوصول إلى النتيجة المرجوة قبل الشروع فى عمل آخر .

٤ — مرحلة معارضة النظام وثورة النفس على القيود الاجتماعية فى سن المراهقة.

فى هذه المرحلة الأخيرة التى تنتهى حوالى السابعة عشرة تتغلب النزعة الذاتية من جديد ويميل المراهق إلى الانطواء على نفسه والتمتع بما يتدفق فى ذهنه من الأخيلة والأحلام فيقطع صلته قدر المستطاع بشؤون العالم الخارجى وبما قد يوحى به إليه من اهتمامات موضوعية . وتكتسح نفس المراهق عاصفة من الثورة ضد القيود والضوابط . وتمتاز هذه المرحلة بالأمور الخمسة الآتية : الصراع الجنسى وما يثيره من مشكلات ، إثبات الذات وروح الثورة ، صراع بين جيلين ، معضلات دينية وفلسفية وأخيراً الصراع العنيف بين المراهق والنظم الاجتماعية .

ولا شك فى أن عنف هذه الضروب المختلفة من الصراع تتفاوت تبعاً للبيئة الاجتماعية ومدى القيود والضوابط المفروضة على المراهق . فقد لوحظ مثلا فى بعض الشعوب البدائية حيث تكون العلاقات الاجتماعية بسيطة عدم ظهور هذه الضروب من الصراع العنيف الذى يشاهد فى الأوساط المتحضرة ، خاصة خلال حالات خاصة من التطور الاجتماعى السريع .

ومهما يكن من أمر تأثير المجتمع فى بعث الصراع واحتدامه فلا شك فى أن مرحلة المراهقة لا تمر بدون صعوبات وتجارب مؤلمة للمراهق نفسه ولمن يحيطون به . فهى مرحلة شبيهه إلى حد ما بالمرحلة الثانية ، إذ فيها تحدث أزمة الشخصية الثانية التى تؤدى إلى غزو الذات وكشف قدسيتها والإسراف فى التأمل الذاتى .

Résumé

YOUSSEF MOURAD - Le développement mental de l'enfant et la formation de sa personalité.

Cet article traite des 4 questions suivantes : 1° Importance de l'étude de l'enfance 2° Le développement mental et l'acquisition du langage - 3° Etapes du développement de la sexualité 4° Etapes de la formation de la personalité.